

تاريخ إنجلترا لماكولى

بقلم: السيدة صوفى عبدالله

١ - حياته

ولد توماس ماكولى فى الخامس والعشرين من شهر أكتوبر سنة ١٨٠٠ فى ليستر . وكان والده حاكم سيراليون ، وكان وقت مولد ابنه يشغل منصب السكرتير العام للشركة التجارية التى أنشأت هذه المستعمرة ، وكان معروفًا بالاهتمام بأعمال الخير وكثرة هباته لجهات الاحسان ، كما كان أيضًا من كبار الأعضاء المؤسسين للجمعية التى عملت جاهدة لالغاء الرق ومنع النخاسة وتجارة الرقيق . بل انه تولى بالفعل رئاسة تحرير مجلة مكافحة النخاسة المعروفة باسم « كرسيتيان أوبزرفر » أى المراقب المسيحى ، وظل فى رئاسة تحريرها عدة سنين .

فى هذه البيئة المثقفة المتحررة التقدمية ذات المشاعر النبيلة والمقاصد الانسانية - نسيباً - نشأ المترجم له توماس ماكولى ، فلا غرو أن يشب متوقد الحس ذكى الفؤاد متطلعاً الى أمجاد الفكر وسراوه الضمير والوجدان .. فقبل أن يبلغ توماس

الصغير الثامنة عشرة من عمره كان قد كتب ملخصاً بأسلوبه الخاص لتاريخ العالم ، ثم كتب رواية شعرية على طريقة السير ولترسكوت فى ثلاثة أناشيد . بعنوان « موقعة شفيوت » ، وبعد ذلك بقليل نظم قصيدة طويلة فى تاريخ « أولوس الكبير » فضلاً عن كومة هائلة من الشعر المرسل عنوانها : « فينجال : قصيدة فى اثنى عشر فصلاً » .

وتلقى توماس ماكولى دروسه فى مدرسة خاصة ، وفى شهر أكتوبر سنة ١٨١٨ - حين أتم الثامنة عشرة من عمره - ذهب الى كلية الثالث بجامعة كمبريدج حيث تخرج فيها وصار عضواً بها بعد ذلك ، وفى سنة ١٨٢٤ نال جائزة على بحث له عن شخصية الملك وليم الثالث ، وجائزة أخرى فى اللغة اللاتينية ، وكان قد نلّم قبل ذلك قصائد ظفرت بالجائزة من الجامعة عامى ١٨١٩ و ١٨٢١ .

وفى سنة ١٨٢٦ دعى للانضمام الى نقابة المحامين بيد أنه كان يقضى جانباً من وقته فى شرفة الزائرين فى مجلس العموم أكبر بكثير من الوقت الذى كان

يُقضى في المحاكم ، وكانت أول خطبة عامة له في اجتماع لمناهضة الرق في سنة ١٨٢٤ ، وقد علقت إحدى الصحف الكبرى في ذلك الحين على تلك الخطبة بأنها « نموذج رائع للبلاغة النادرة والامتياز الناضج » وناهيك به من اطراء لرجل لما يزل في العام الرابع والعشرين من عمره .

وفي سنة ١٨٢٥ بدأ. صلته بمجلة أدبره التي كانت لسان الجيل الصاعد الذي ينادى بالإصلاح، كما كانت محكمة أدبية عليا لاستئناف لأحكامها في ذلك الحين ، وكانت مقالاته المنشورة بها عن الشاعر جون ملتون كافية لإقامة صرح شهرته الأدبية الضخمة على الفور ، مع أنه شخصيا وصف هذه المقالة فيما تأخر من عمره بأنها « تكاد لا تتضمن فقرة واحدة يقرأها حكيم الأدبي بعد أن نضج تفكيرى » ومرد ذلك غالبا إلى أن العقلية الانجليزية بوجه عام لم تكن قد ارتقت بعد ذلك العهد إلى المستوى الرفيع الذى يسعه أن يعرف أقدار نقاد أفذاذ من طراز وليم هازليت وكولريدج ، ومع هذا كله فيما يثير الدهشة حقا أن تكفى مقالة واحدة وحيدة - مهما كانت بلاغتها - لإقامة هذه الشهرة الضخمة المدوية ، ينبغى ألا يغرب عن بالنا أن المؤلف كان متحدثا لامعا وخطيبا ألعيا مما كفل له تقبلا اجتماعيا كبيرا ، وتلك مسألة ذات شأن كبير فى إذاعة شهرة أرباب الفنون وحملة الأقلام فى ذلك الحين

وعلى أثر ذلك النجاح الأدبى الاجتماعى تطلع توماس ماكولى إلى نجاح أكبر فى ميدان أهم فى نظر رجال مصر ، وهو ميدان السياسة ، ولكن أمرته منيت بكارثة مالية اضطرتة للعمل لكسب معاشه . وفى الوقت نفسه أوقف صرف الراتب

الذى كان يصرف له من كلية الثالوث لانتهاه فترة زمالته بها فى سنة ١٨٣١ ، وكان هذا الراتب ثلاثمائة جنيه فى السنة لها قيمتها الشرائية ولاشك فى ذلك الوقت ، أما ربحه من الكتابة فلم يكن يتجاوز مائتى جنيه فى السنة لا تكفى وحدها لحياة « جنتلمان » ، فبلغ من اشتداد الضائقة به أن اضطر لبيع ميدالية كمبريدج الذهبية .

وفى أواخر سنة ١٨٣٠ ظفر بعضوية مجلس العموم عن دائرة أخلاها له اللورد لانسداون وأنفق على حملته الانتخابية فيها ، مع تمهد اللورد لانسداون ألا يتدخل فى رأى توماس ماكولى أو توجيه صوته فى البرلمان ، وما كان توماس ليقبل ذلك العرض السخى من اللورد بدون ذلك الوعد الصريح الذى يكفل له استقلال رأيه ونزاهة قيامه بأعباء النيابة .

وكانت خطبة توماس ماكولى العذراء فى مجلس العموم حول قانون رفع القيود عن نشاط اليهود وحرىاتهم ، وبعد ذلك بقليل مات ملك انجلترا وحل البرلمان ، كانت الثورة قد نشبت فى باريس . وخاض توماس ماكولى المعركة الانتخابية مرة أخرى وظفر بمقعد للمرة الثانية ، وعلى أثر تجديد انتخابه زار باريس فكانت هذه أول رحلة له خارج بريطانيا ، وفى مارس سنة ١٨٣١ تقدم إلى مجلس العموم اقتراح من الحكومة بقانون لإصلاح أحوال الهند فألقى توماس خطبة رائعة جسد فيها الامعان فى الإصلاح الاجتماعى وشرح ضرورته القصوى والمبادئ التى يركز عليها ويرمى إلى تحقيقها ، وقد شهد السير روبرت بيل بأنها « من أبلغ ما سمعه أو قرأه فى حياته كلها » وفى شهر يونيه سنة ١٨٣٢ تم اقرار البرلمان لقانون الإصلاح وأنتخب المجلس توماس ماكولى

جنيه في السنة ، وهو مبلغ ضخم جدا توازي قوته الشرائية عشرة أمثاله في الوقت الراهن ، وكان في تقديره أن يدخر منها ثلاثين ألفا في سنوات العضوية الخمس ، بمعدل ستة آلاف جنيه في السنة ، ومما يذكر لهذا المفكر الحر أن مواقفه في ذلك المجلس كانت دائما في جانب الآراء الحرة والاصلاحات التقدمية، في حين كانت حكومة الهند في ذلك الوقت شديدة التزمّت والاستبداد وتنتهج سياسة تفرقة عنصرية فادحة ضد الوطنيين ، فطالبها توماس ماكولي باباحة حرية الصحافة للهنود ، وبمساواة الوطنيين والأوروبيين مساواة تامة أمام القانون ، وبإباحة التعليم الوطني والعمل على التوسع فيه ، ثم عين رئيسا للجنة التشريعات الهندية فكان مشروع القانون الجنائي الذي تقدم به أساسا للقانون الجنائي المعمول به في الهند حاليا ..

وفي سنة ١٨٣٨ عاد توماس ماكولي مع أخته حنة الى إنجلترا حيث خاض المعركة الانتخابية ودخل مجلس العموم عضوا ممثلا لدائرة ادنبرة ، وفي سنة ١٨٣٩ صار وزيرا للحرية في وزارة لورد ملبورن ، وقد عاقته أعباء ذلك المنصب الوزاري مؤقتا عن اتمام مشروعه الكبير في كتابة التاريخ الانجليزي العام ، ولكن الوزارة سقطت بعد أقل من سنتين ، وفي سنة ١٨٤٢ ظهر كتابه الضخم عن تاريخ روما القديم ، وفي السنة التالية جمع مقالاته المنشورة في المجلات الأدبية في موضوعات النقد الأدبي والتراجم فظهرت في صورة كتاب لأول مرة سنة ١٨٤٣ ، وفي سنة ١٨٤٦ دخل الوزارة مرة أخرى فصار وزيرا للأجور والمعاشات في وزارة لورد جون راسل - وهو جد الفيلسوف الكبير المعاصر لورد برتراند راسل أحد مفاخر

عضوا في لجنة مراقبة تنفيذه ، اعترافا منه بفضلها وتنويعا بخطبه وجهوده في تأييد ذلك القانون في سائر مراحل التشريعية ، فصار ماكولي يخصص سحابة نهاره لدراسة شئون الهند المتشعبة ولياليه لحضور جلسات مجلس العموم ، فلم يتيسر له من الوقت ما يقضيه في أعماله الأدبية اللهم الا ساعات قليلة كان يفلح في تدويرها عن طريق نهوضه من فراشه في الساعة الخامسة من صباح كل يوم ، وبهذه الطريقة نشر في مجلة ادنبرة ما بين سبتمبر سنة ١٨٣١ وديسمبر سنة ١٨٣٣ عددا من المقالات الهامة الى جانب قصيدته عن « الارمادا » ، ذلك الأسطول الأسباني الجبار الذي حضر لغزو إنجلترا فحطمه الانجليز وبدأت بذلك هيمنتهم على البحار السبعة .

وتوالى بعد ذلك نجاحه في مؤازرة مشروعات القوانين الاصلاحية في مجلس العموم سنوات ثم حدث أن عرضت الحكومة مشروعا بقانون يضع قيودا على الغاء الرق حماية لمصالح المستغلين الانجليز ومشروعاتهم الزراعية والتجارية الواسعة في المستعمرات ، فلم يتردد توماس ماكولي في الاستقالة من حزب الحكومة وانبرى داخل المجلس وخارجه يهاجم هذه القيود في القانون المقترح ويندد ببواعثها ويطالب بالغاء الرق بغير قيد ولا شرط ، حتى اضطرت الحكومة أمام هجماته القوية الى التخلي عن موقفها شيئا ما ، فخففت القيود المقترحة على الغاء الرق الى النصف ، وهو خطوة غير قليلة في ميزان الكسب السياسي .

وفي سنة ١٨٣٤ تولى توماس ماكولي عضوية المجلس الأعلى لشئون الهند حسب القانون الجديد وبذلك تحتم عليه الرحيل الى مكان منصبه في الهند ، وكان مرتب هذه العضوية عشرة آلاف

عصرنا فى حرية الرأى ونزاهة الضمير واستقلال الفكر ومناصرة قضايا السلام - وفى انتخابات يولية سنة ١٨٤٧ خسر المعركة الانتخابية فى دائرة ادنبره فوجه معظم جهوده الى ميدان الأدب ، وأخذ بمرور الوقت يضيق بمواطنى الزحام ويتبرم من الوجوه الجديدة التى لم يألفها من قبل وانسحب من المجتمعات العامة ليفرغ للقراءة والكتابة ، وهكذا وصل بالتدريج الى التقاعد عن كل نشاط اجتماعى عام ، ولم يبق على صلة من الصلات سوى علاقاته القليلة الوثيقة بأصدقاء معدودين من صفوة رجال الفكر والمجتمع ، وكانت المآدب الاجتماعية السائدة فى ذلك الحين على صورة دعوات للافطار ، وكان ماكولى يحب هذه الدعوات ويلبىها فى بيوت أصدقائه المقربين حيث ينطلق فى حديثه الشائق الفكاهة الذى يزينه برجولته ووقاره .

وفى غضون تلك السنوات كان يعمل بجد فى كتابة تاريخ انجلترا ، وكان يكتب ببطء ، أما تصحيحاته للمادة والأسلوب فتكاد لا تكون لها نهاية ، ولم يدخر وسعا فى سبيل التثبت من صحة الوقائع ، وقد ضحى فى سبيل هذا الكتاب بحياته السياسية وبعضوية مجلس العموم وبالبريق الاجتماعى ، وفى ديسمبر سنة ١٩٤٨ ظهر الجزءان الأول والثانى فكان نجاحهما يفوق كل تقدير وتوقع ، وبيعت منهما كميات هائلة فى طبعات عديدة صدرت فى انجلترا وأمريكا معا .

ولما عاد حزبه للحكم فى سنة ١٨٥٢ - وهو حزب الأحرار - عرض عليه مقعد وزارى بيد أنه رفضه معتذرا عن عدم قبوله لانشغال وقته كله فى اتمام مؤلفه الضخم ، ولكن مدينة ادنبره انتخبته بالاجماع وأعادته بالتركية الى مجلس

العموم فى يولية سنة ١٨٥٢ ، ولم يكذب يقبل هذه العضوية حتى بدأت تظهر عليه علائم ضعف الصحة التى لم تزيله بل راحت تزيد وطأتها عليه تدريجا حتى وافته منيته ، وكان أشد ما يؤلمه فى هذه الفترة أن يظل عمل حياته الكبير غير تام ، ولم ينبر للخطابة فى البرلمان - وهو من أبلغ وأشهر خطباء عصره البرلمانيين - الا مرتين وعلى مضض شديد ضنا بوقته الذى كان يشعر أنه ينبغى أن يخصص كله للكتابة .

وفى نوفمبر سنة ١٨٥٥ ظهر الجزءان الثالث والرابع من تاريخ انجلترا وانتشرا انتشارا عظيما جدا ، وتدل الاحصاءات على أنه بيع من كتابه هذا أكثر من مائة وأربعين ألف نسخة فى مدى جيل واحد فى انجلترا وحدها ، أما فى أمريكا فكان التوزيع أضخم من هذا بكثير ، وترجم الكتاب فور صدوره الى الألمانية والبولندية والدانماركية والسويدية والمجرية والروسية والبوهيمية والايطالية والفرنسية والهولندية والأسبانية ، وانهالت على المؤلف آيات التقدير والاحترام من الأكاديميات الأجنبية ، وصارت حقوق الطبع التى يتلقاها معلما بارزا فى تاريخ البشر الأدبى فى القرن التاسع عشر ، حتى لقد وصل الرقم المدون بأحد الشيكات المدفوعة له الى عشرين ألف جنيه دفعة واحدة ، وهو مبلغ هائل جدا فى ذلك الحين .

وفى سنة ١٨٥٧ صار توماس ماكولى لورد ماكولى فقد منح لقب بارون ماكولى أوف روثلى . ولم يتزوج اللورد ماكولى قط ، وكانت أحب الناس اليه أخته حنة ، وكان أبناؤها أبناءه ، وماكولى صديق وفى جدا ، ولم يعز اليه أى عمل يناقض الشرف والنزاهة بأدق معانيهما ، حتى لقد

حدث أيام فقره التى كان المرتب فيها شديد الأهمية مادية بالنسبة لمقومات معيشية أنه استقال مرتين حتى لا يتساهل فى أمور ما كان ليلام عليها لو أنه تساهل فيها ، ففى سنة ١٨٤٧ عندما كان مقعده فى مجلس العموم فى كفة القدر عجزوا عن اقناعه بقبول شيء من الملاينة أو المهادنة والتوافق مع المسؤولين وذوى النفوذ فى الدائرة من أصحاب المصالح الكبرى ، ولم يكن فى الوقت نفسه زاهدا فى الدنيا ، بل كان ذواقا للذائد يجب طبيبات الحياة ومناعم العيش ويصبوا الى المال لأنه الوسيلة الى هذا كله ، بيد أنه كان يعلى الشرف والمبادئ القويمة اعلاء لا تردد فيه ولا مساومة فوق طبيبات الحياة ولذا نذرها وفوق الجاه والثراء ، وهذا من جانبه تضحية أجل من تضحية المطبوعين على الزهادة .

وأظهر الثراء الذى أصابه فى الثلث الأخير من عمره كوامن طبيعته ، فاذا به جواد يبذل فى وجوه الخير والبر مفتوح الراحتين ، وينفق غير مغلول اليد الى عنقه ، وشهد له الجميع بأن أخلاقه السامية وجوده غير مشفوعين بأى تشدق أو امتنان أو تفاخر وغاش حتى آخر عمره سعيدا مغبوطا محترما مستمتعا بمكائنه المرموقة فى المجتمع ، يوزع وقته بين صومعته الفكرية الأدبية ومقابلاته ودعواته المحدودة بين أصفائه ومريديه ، حتى اذا كانت السنوات الخمس عشرة الأخيرة من عمره انقطع الى حياة القلم ، ووجد فى الجزء المادى الضخم على كتاباته علامة تقدير أبهج قلبه بمغزاها قبل مبناها ، وعلى اغتباطه الشديد بالمال الطائل الذى ساقته اليه كتاباته بصورة فاقت كل حد فى زمنه الا أنه لم يكتب قط والمال غايته ، بل خصص كل عقله وقلبه لدراساته التاريخية ، فعاش مع رجال الأزمان التى كتب عنها ، وعانى ظروفهم وأزماتهم بنزاهة وحسن تصور .

وكانت وفاته بعد اضمحلال تدريجى فى صحته فى ٢٨ من ديسمبر سنة ١٨٥٩ ، قبل أن يصل بتاريخ انجلترا الى نهاية عهد الملك وليم الثالث ، ونشر الجزء الخامس من مؤلفه الضخم بعد وفاته .

٢ - أدبه

كانت ثقافة توماس ماكولى الأدبية ولا سيما فى التراثين الاغريقى والرومانى مذهلة فى ميادين الأدب والتاريخ والاجتماع والتطور الحضارى ، وكانت سيطرته على قلمه لا تقل جبروتا عن قراءاته الأدبية ، ولما تصدى للكتابة فى التاريخ تبحر فى الأدب الانجليزى والفرنسى والايطالى والأسبانى وقرأ قراءة واسعة فى تاريخ هذه البلاد على اختلافها وتعلم الى جانب هذه اللغات قسما كافيا من اللغة الهولندية لخدمة أغراضه التاريخية ، وكان يعرف الألمانية أيضا ويقرأ فيها ، أما لغات أمم الشمال وآدابها فلم يجد له حاجة اليها فى عمله ودراساته التاريخية ، بيد أنه لم يطلع على الأبحاث الدقيقة التى قام بها الألمان فى علوم التاريخ والحضارة فلم يعرف لها قدرها الصحيح .

ولم تكن الفلسفة النظرية من المواد الأثيرة لدى توماس ماكولى ففاته ادراك ما للمذاهب الفلسفية من تأثير عميق على تيار التاريخ البشرى والتقدم الانسانى ، وكان يعترف بجهله بالفن ، ولذا رفض كتابة دراسة نقدية لشعر سويغت لمجلة ادنبره كبرى المجلات الأدبية فى زمنها ، وكان يعلن صراحة أن كتاب لسينج الشهير « اللاوكون » فى النقد المقارن للفنون يملأ عقله بالدهشة واليأس ، وكذلك جوته لهاملت .

وأما المكتشفات العلمية التى توالى يوميا فى زمنه فلم يلق باله اليها ولم يشر اليها فى كتاباته

كما كان يضيق بالدراسات الرياضية منذ كان في الجامعة ، ولكنه في مقابل هذا لم يكن متخلفا عن أى أديب انجليزى فى عصره من حيث الاطلاع على الأدبى الواسع ، ولم يكن يعتمد على ذاكرته شأن الكثيرين من أدباء زمنه بل يعتمد على مراجعته ومكتبة بيته العامرة .

وأبحاثه الأدبية والتاريخية زاخرة بتراث العصور جميعا ، وأسلوبه المثل بهذا الاطلاع الواسع أشبه بشعر جون ملتون المنشور ، ولكنه لم يكن خاليا من التحيز فى كتاباته التاريخية ، فقد كان من أقطاب حزب الأحرار ، ولذا كان ينحاز فى تأريخه لكل المواقف المشابهة لآراء ومواقف حزبه ، ويبدو ذلك على الخصوص فى تأريخه لمواقف الأحزاب الانجليزية فى كتابه الضخم عن تاريخ إنجلترا ، ولم يكن يقتصد فى تصوير مزايا الأصدقاء أو نقائص الخصوم مستخدما فى تصويره أزهى الألوان وأشدها جرأة ، وعباراته حافلة بالتحدى لمن يعارضه فى الرأى ، وهو دائما حاسم فى أحكامه ، الأمر الذى يجب قراءته الى الرجل العادى الذى يفضل الطبيب الحاسم فى تشخيصه على الطبيب الحذر الذى يقف موقف التشكك طويلا قبل أن يقطع برأى ، أما القارئ المتبحر أو من له ثقافة تاريخية عميقة فيساوره الشك كلما أمعن فى قراءة توماس ماكولى .

ولقد عزى الى لورد ملبورن أنه قال ذات مرة .
« لكم أتمنى لو كنت واثقا بشئ واحد على غرار ثقة لورد ماكولى الحاسمة بكل شئ »

والواقع أن عقلية ماكولى - كما لاحظ الكثيرون ليست عقلية الفيلسوف بل عقلية المحامى ، فهو أشبه بالكاتب الأسقف الفرنسى بوسيه الذى لم يكن يتشكك مطلقا فى صواب أحكامه ولا يتسامح

مع خصومه ولا يمكن أن يجدهم على شئ ولو ضئيل من الصواب .

ولذا لا يمكن أن يعتمد على كتاب من طراز لورد ماكولى فى مسائل تحتاج الى ترجيح بين القرائن وموازنة بين الآراء ، وهما الخاصتان الأساسيتان المميزتان للمؤرخ بالمعنى العلمى الصحيح .

أجل ان لورد ماكولى ليس فيلسوفا ، وانما هو قطب من أقطاب حزب الأحرار المثقفين يشارك فى المشاعر المعتادة لمواطنيه ، مع ميل الى التحرر ، بيد أن هذا الميل ليس برمته فطريا ، فالناظر المتعمق فى أفكار لورد ماكولى وتطور نموها يستطيع أن يدرك تأثير مذهب بنتام الفلسفى المشهور باسم المذهب النفعى ، وما من شك أن هذا المذهب كان له تأثيره المغناطيسى القوى على جيل اللورد ماكولى بأسره ، والى تأثير هذا المذهب بوجه عام يعزى ميل ماكولى الى الأمور الثقافية والفكرية واعتزازه بها واحساسه الشديد بأهمية التقدم الاجتماعى والنزعة العصرية والاهتمام بالمنطق ، ولما كان ماكولى مفطورا بطبيعته على الاعتدال فى مزاجه مع ضفاء فى قريحته فقد نتج عن التأثيرات المذكورة آنفاميل شديد لدى ماكولى الى الصبر والاهتمام بالتكوين والبناء فى كتاباته أكثر من الاهتمام بالابداع والابتكار .

ان فكرة النظام تأتى عند ماكولى قبل فكرة الحق ، فالحق عنده لا يمكن الكشف عنه الا فى اطار من النظام ، ولذا كان الأديب فيه مهيمن على المؤرخ ، وكان تاريخه عملا أدبيا قبل أن يكون عملا علميا ، فجل همه ليس موجهها الى البحث عن الشكل الحقيقى للواقع بدقة ، ولا الى تحرى الأحداث واستقصاء مغزاها الفعلى ، بل ولا الى العناية بتجميع الوثائق والأسانيد ، وانما نحن نجد

يجمع بمجهوده الذهني الأشتات التي يحصل منها على انطباع عام يبنى عليه فكرة عن طريق الحدس والالهام ، ثم يركز كل طاقات موهبته في دعم هذه الفكرة ومساندة فحواها ، فهو محام يستमित في الدفاع عن انطباعه الشخصي ولا يقاوم ميوله العاطفية مقاومة حقيقية .

وفي اعتقاد ماكولي أن الواجب الأول الذي يتغياها التاريخ هو التعليم ، ولذا فهو يعلم ، ولذا أيضا نجد القضايا التي يعتنقها ويدافع عنها هي القضايا التي تتفق مع الضمير الخلقى والسياسي لقطب من مثقفي حزب الأحرار وكاتب من كتاب مجلة ادنبره بغير خلاف عن ذلك النمط الخلقى والسياسي قيد أنملة واحدة .

ولامفر من الاعتراف بأن تدخل شخصية الكاتب في عمله مسألة يكاد الا يكون منها مناص الى حد ما . ولم يستطع الكتاب في أى جيل من الأجيال أن يصلوا الى الموضوعية العلمية التامة في كتاباتهم الا بشق النفس ، فالطابع العلمى في عصرنا الحاضر يدفع له الكتاب والباحثون ثمنا باهظا كى يخفوا ميولهم الشخصية ولا سيما اذا كانوا من أهل الطبائع القوية والآراء المتحمسة ، فما أصعب النزاهة على القاضى حين تكون لديه انفعالات جياشة فيما يتعلق بموضوع الدعوى التي يفصل فيها .

أما لورد ماكولى فلم يكن يشعر بشيء من قبيل هذا الصراع ، ولم يساوره ضيق أو خذى من انحيازه اللاشعورى ، وبذلك انفسح أمامه المجال للتخليق ببلاغته في ذلك الجو التاريخى ، مما جعل عرضه نابضا على الدوام بالحياة ، ومما جعل أسلوبه في السرد ذا صبغة درامية وخطائية أخاذة ، ولئن لم يعتبره المؤرخون المحترفون في زمننا حجة من

الوجهة العلمية ، فهو لن يزال كاتباً عظيماً وأديباً بليغاً يتخذ من التاريخ مادة لعلمه الأدبى ، فما من أحد أبرع منه فى تنسيق اللوحات التاريخية ذات المشاهد العظيمة ، أو فى سرد حادثة تاريخية هامة سرداً تصويرياً حياً ، والى تأثير فنه فى الجمهور العريض تعزى شهرته المستفيضة ومكاته .

ولئن كانت هناك مشابهاة كثيرة بينه وبين الروائيين فى تصوير مشاهد التاريخ ، الا أن أوجه الشبه ليست تامة ، أجل انه ليس شديد التجرد للوثائق واستقصاء الأسانيد ، الا أنه شديد التيقظ لأهمية « الشهادة الحية » التي تدل عليها الحادثة العارضة والتجربة الملموسة . فتاريخه تاريخ حي يقوم على الاستحياء والتخيل ، وهذا هو الفارق الكبير بين نمط كتاباته وكتابات المؤرخين المحترفين التي تعتمد غالبا على « الكلمة الميتة » أى الوثائق الرسمية والأسانيد المخطوطة ، فموهبة لا تبارى فى احياء العادات والتقاليد واحاطة الأحداث والأشخاص بالمؤثرات والتيارات التي تساعدنا على فهمهم ، يضاف الى ذلك اقتداره العظيم على استكناه الطابع استكناها يحملنا على الاقرار لماكولى بالاستاذية فى علم النفس التاريخى .

ان تاريخ انجلترا بقلم ماكولى يعتبر اعادة بناء بأسلوب فنى للحياة العامة فى انجلترا فى فترة التحول من القرن السابع عشر الى القرن الثامن عشر ، وهو بهذا الاعتبار ذو قيمة باقية ولا شك . أما مقالاته التي تحتاج بطبيعة الحال الى التزام أيسر من الكتابات المستفيضة للمنهج العلمى الدقيق فتترك العنان لموهبته الحرة ، فتبدو ملكته أقل تعرضا لهجمات النقاد ، وهو فى هذه المقالات يمزج بين الأدب والتاريخ ، فاذا بالأدب وقد تداخل نسيجه مع نسيج الحياة تداخلا يضع الفرد موضعه

الصحيح فى اطار عصره ، ومن هذا القليل مقالاته عن فريديريك الأكبر ، ولهذا النوع من المقالات حين يوافق مزاج مؤلفه تأثير باهر مذهل على القراء . وحتى عندما يختلف القارئ فى رأى مع ماكولى لا يخلو من لذة عظيمة أمام سحر يمانه وقوة عارضته ، فصفتات هذه المقالات تتلألأ ببريق لاشك أنه حصيلة الشحنة الوجدانية الدافقة والاهتمام العقلى الصادق ، وهذه كلها مزايا لا ينكر أشد خصوم ماكولى تمتعه بها على مستوى عال يضاف الى ذلك أنه يرصع أسلوبه المتدفق الواضح المتعدد الألوان بال نوادر الصغيرة ذت المغزى ، والاشارات البارعة والأقوال المأثورة ، مما يكسب تيار كتاباته الدافق مرونة وتنوعا .

٣ - تاريخ انجلترا

وقد صدر تاريخ انجلترا أصلا فى خمسة أجزاء على فترات متباعدة ، فالجزءان الأول والثانى ظهرا فى سنة ١٨٤٨ . والجزء الثالث والرابع فى سنة ١٨٥٥ ، أما الجزء الخامس الذى لم يتم فصدر فى سنة ١٨٦١ بعد وفاة اللورد ماكولى بستين تقريبا وقد بدأ بحالة انجلترا فى عهد الرومان ، ولكن أكبر اهتمامه كان موجها الى الفترة التى تبدأ بارتقاء الملك جيمس الثانى العرش الى نهاية حكم وليام الثالث .

وكان اللورد ماكولى قد بدأ كتابة هذا التاريخ فى أوج عنفوانه ، وذلك فى شهر مارس سنة ١٨٣٩ ومنذ ظهر الجزءان الأول والثانى طغت شهرة المؤلف وطمست شهرته الكبيرة التى كان قد أحرزها فجأة باعتباره كاتب مقالات وتراجم ، فتجاوزت شهرة تاريخه حدود بلده وذاع صيته فى العالم أجمع دفعة واحدة .

ويدين اللورد ماكولى بهذا النجاح المدهى لمنهجه الخلاب فى السرد وأسلوبه البليغ ، فهو مصور بالكلمة أكثر مما هو محلل محايد للوقائع . وقد عبر فريديريك هاريسون الناقد المعروف عن خصائص أسلوب ماكولى بقوله : « ان معانيه شفافة نيرة ، وله رنين فى الأذن يشبه فى المواقف الحاسمة طلقات الرصاص وهو فى سائر المواضع التى تستجيش النفس رنان غنى سريع التدفق ، والواقع أن هدفه الأساسى من الكتابة أن يجعل من مادة التاريخ قصة واقعية » .

وهذا الوصف صادق بحذافيه ، ونجرب صدقه كلما مضينا مع صفحات ذلك التاريخ الطويل ، فإذا أسلوبه فى السرد يرسم حول عباراته هالة كهالة القمر تخطب اللب وتستهوى القارئ فىمضى وهو أشبه شئ بالمسحور . وهو لا يفقد هذه المزية حينما يزخرف تعبيراته أو حينما يسوقها مساق البساطة كأنما هو رفيق فى ساعات الوحدة أو صاحب مسامر فى رحلة من رحلات الأسفار . فهو دائما حريص على التوازن الموسيقى فى جملة ، ويحتفل بتجويد الصياغة حتى أنه فى بعض الأحيان يستخدم أقيسة وقضايا لبيان أفكار عادية ماكانت تحتاج فى عرضها الى شرح أو اسهاب ، الا ان ذلك كله لا يقلل من سحره الذى يستولى على نفس قارئه .

ومع المضى فى رواية ذلك التاريخ تزداد سرعة التدفق فى الأسلوب والتصوير والأحداث ، وتتوالى الصفحات تحت أنظار القارئ المأخوذ ، والمؤلف يكاد يطير بين يديه يشق له بين أدغال الماضى طريقا سحريا بعضا سحرية ، فيخيل اليه أنه يرتاد عالما من عوالم الجن وهو يحدثه عن أنداده من البشر وقد نقض عنهم تراب الزمن فأخرجهم من طوايا الفناء أحفل بالحياة ومخايل العنف والنجابة والأريحية

من كل من يزدحم بهم العالم من حولنا ولنلسمهم
لمس انيد ونراهم رأى العيان .

وحتى حين يمضى ذلك الساحر بنا فوق أرض
ممهدة وطريق مطروق تسعفه قدرته الفائقة على
الوصف التصويرى فيستخرج بالمعيتة فى اصفاء
الألوان والظلال مناظر جانبية وزوايا للرؤية لم يلفظ
اليها أحد قبله ، فكأننا نجتاز بهذه الأحداث لأول
مرة ، وبذلك يصدق عليه أنه أول من نجح فى
اضفاء الخفة والتنوع والجاذبية على ميدان وقائع
التاريخ ، فاذا بالكتابة التاريخية ترقل فى الأثواب
البديعة الموحية للخيال القشبية النسيج التى كانت
تستأثر بها من قبل كتابات التسلية دون كتب الدراسة
والتأمل ، فجميع من كتبوا التاريخ - بغير استثناء
جيبونى وهيوم - يشعرون القارىء أنه بصدد
دراسة تقتضى منه مجهودا ذهنيا ولا يمكن أن يجنى
ثمراتها الا بالكد والجهد ، أما لورد ماكولى فقد
رزق سعادة نادرة وتوفيقا فنيا فى كتابة التاريخ
بحيث يجلو لنا الحقائق فى صورة عرائس الخيال
التى تهفو اليها النفس ويستجيب لها الوجدان
فيجرف فى تيساره الدافق جهود الذهن وتركيز
التفكير .

وبهذا المنهج الفنى استطاعت موهبة ماكولى أن
ترتب الوقائع والأحداث ترتيبا أنيقا رشيقا يضاهى
بتناسقه الأفاصيص الخيالية . وأعظم مايكون نفوذ
كاتب من هذا الطراز حين يحذر من التضحية
بالحقيقة فى سبيل التأثير ، فيجعل الخيال
واستجاشة الوجدان فى خدمة الحقيقة التاريخية
لا العكس .

والواقع أن اللورد ماكولى كان يعترض أشد
الاعتراض على كتابة التاريخ فى صورة وقائع جافة

وأحداث عسكرية وسياسية بارزة ، لأن هذه
الأحداث فى نظره انما هى ثمرات لشجرة ضخمة
يتجاهلها المؤرخون القدماء ، وهذه الشجرة هى روح
العصر وحياة الأمة والمجتمع الذى تجرى فيه هذه
الأحداث ، ولذا ينبغى أن يكون التاريخ فى نظره
بقدر الامكان صورة حية للعصر تتراءى فيها
العوائد والتقاليد والعرف السائد والمبادئ قبل أن
تتراءى فيها أعمال البارزين من الأفراد وكبار
الأحداث . فينبغى ألا تكون غاية المؤرخ رصد
وتسجيل قائمة بالحوادث ، بل بيان الأسباب والعلل
التى نجمت عنها هذه الحوادث ، والظروف
الاجتماعية أو السياسية أو الخلقية التى أدت اليها ،
وتتأج ذلك فى مجرى حياة البيئة التى وقعت فيها
هذه الأمور .

وكان مثار الدهشة من معاصريه أن يخرج ماكولى
على العرف السائد فى تقدير قيمة الأحداث ووزنها
فاذا به يتناول حادثة صغيرة فى مظهرها لا تسترعى
النظر العادى فيجسمها ويشرح دقائقها وكأنما
يضعها تحت مجهر مكبر ، وظن أولئك المعاصرون
أنه بذلك يخل بالتناسب الواقعى بين الأحداث
وحقيقة الأمر أنه أصح منهم فراسة فى وزن بواطن
الأمور ودلالاتها ، فقيمة الحادثة العارضة أو
الصغيرة ليست فى حجمها وخطورة مظهرها بل فى
دالتها على أعماق النفوس البشرية أو على التيار
الخفى للظروف والأحوال أو على المناخ العقلى
والخلقى والاجتماعى ، فهو بذلك يجعل الحادثة
فى خدمة التصور الباطن ، لأن التصور الباطن هو
غاية الغايات ، أما الحوادث فأحوال عارضة ووسائل
ينبغى ألا تخدعنا ببريقها وضجيجها فتتوهمها
غايات ، ذاتها .

وهذا المنهج الحيوى فى كتابة التاريخ اقتضى من ماكولى اطلاعا واسعا جدا ورجوعا الى أشتات من المصادر الأدبية والرسمية وكتب السيرة والوثائق وكانت القراءة الدأبة يوما بطوله فى مكتبته الخاصة لا تمده فى بعض الأحيان بأكثر من نصف سطر من ذلك العمل الضخم ، ومن أسف أن العمر لم يفسح أمامه كى يصل الى أحداث عصره التى عاشها ، وهكذا ظل تاريخ إنجلترا أشبه بالنصف العلوى الضخم من تمثال هائل لم يقدر له أن يتم .

ومن حسن الطالع أن عهد الملكين جيمس ووليم قد عولج بتمامه تفصيلا ، وفى ذلك العهد مشاهد من أغرب وأروع ما حفل به التاريخ الانجليزى : فثمة معركة بوين ومذبحة جلنكو ومحاكمة الأساقفة السبعة ومؤامرة تيشوس أوتس ، فجاءت هذه المشاهد بريشة ذلك المصور التاريخى المبدع صفحات من أبلغ ما غنيت به المكتبة الانجليزية .

وأما وصف حالة مدينة لندن فى القرن السابع عشر فنموذج رائع لمنهج لورد ماكولى الوصفى المستقصى لعناصر البيئة المادية والمعنوية .

٤ - شذرات

* يصف ماكولى مدينة لندن على حالها فى سنة ١٦٨٥ ويصف الحريق الكبير الذى قضى على ميل مربع من مبانيها فى بضعة أيام وازال من الوجود تسعا وثمانين كنيسة وثلاثة عشر ألف منزل ثم يقول :

ولكن المدينة برزت الى الوجود مرة أخرى فى سرعة استرعت اعجاب الأقطار المجاورة ، ومن سوء الحظ أن تخطيط الشوارع القديمة ظل على ما هو عليه الى حد كبير ، وكان تخطيط هذه الشوارع

قد تم فى عصر يركب فيه الجميع حتى الأميرات متون الخيل ، ولذا كان عرضها أقل من أن يسمح للعربات ذات العجلات الكبيرة بالمرور فى اتجاهين متقابلين دفعة واحدة فى معظم الأحيان ، ولهذا السبب أمست هذه الشوارع غير صالحة لاقامة الأثرياء فى عصر غدت فيه العربات الضخمة التى تجرها ستة جياد السمة البارزة بين سمات الترف والوجاهة . وفى مواقع كنائس الابراشيات العتيقة أقيمت بعد الحريق حشود من القباب الجديدة والأبراج ومنارات الأجراس تحمل جميعها طابع عبقرية المهندس السير كريستوفر رين الخصبة ومحيت من جميع المواضع آثار الدمار الهائل محوا تاما فيما عدا موضعا واحدا ، لأن جموع العاملين والصناع وهياكل السقالات وأكداس الحجارة المنحوتة كانت لم تزل الى أمد طويل مشهودة فى الموضع الذى أخذت تبرز فيه ببطء شديد أنبسل وأهيب المعابد البروتستانتية على أنقاض كاتدرائية القديس بولس القديمة .

* ويكفى لوصف حالة شوارع لندن فى الفترة التى أعقبت ذلك الحريق وإعادة البناء أن نذكر للقارئ أن كل من كان يمضى فى تجواله الى الموضع الذى صار حاليا أشد أجزاء شارع ريچنت فى قلب لندن ازدحاما كان حريا أن يجد نفسه بين الحقول والغابات بحيث ربما أسعده الحظ بصيد ديك برى من بين الطيور التى تمرح هناك ، وإلى الشمال فى شارع اكسفورد المزدهم حاليا كان السائر يلقى نفسه وسط أسوار من النباتات تحيط بالحقول والمراعى الخاصة . فإذا اتجه جنوبا ثلاثمائة ياردة وجد نفسه بازاء أسوار الحدائق التى تحف ببضعة بيوت كبيرة كانت تعتبر خارج نطاق المدينة . وإلى الغرب من طريق اكسفورد

مرعى مشهور بنبع كان يتدفق فيه . وإلى الشرق
حقل مترام لم يكن أى لندنى من أبناء ذلك العصر
يجرؤ على اجتيازه من غير أن تتنابه رجفة ، فقبل
ذلك بعشرين عاما كان المسلم به أن هذا الحقل أبعد
ما يكون عن ارتياد البشر ولذا حفروا فيه والطاعون
فى عنفوان سطوته حفرة عميقة كانت عربات الموتى
تلقى فيها ليلا بالعشرات من الجثث . وكان الشائع
فى أذهان الناس كافة أن الأرض هناك مشبعة
بالتلوث الى أغوار سحيقة بعدوى ذلك الوباء ولا
يمكن الحفر فيها للزراعة أو للبناء رغم مضى ربع
قرن من غير أن تجدد غوائل الطاعون ، ولذا انقضى
جيلان من البشر بغير وباء قبل أن يجرؤ أحد على
اقامة بناء هناك ، وكانت الأراضي المحيطة بذلك
الحقل قد امتلأت بالأبنية منذ زمن طويل .

* ولو عرضت على أنظارنا أوجه أحياء مدينة
لندن فى ذلك الحين على ما كانت عليه فعلا لمألأنا
منظرها القبيح الحقيق بالتقزز ، ولشعرنا بالوخامة
والروائح الكريهة المنتشرة فى جوها تسمم أنفاسنا
ففى حى كوفنت جاردن كانت تقام سوق يومية
قذرة صاخبة عن كتب من مساكن العظماء والأقطاب
وفى هذه السوق تصرخ بائعات الفاكهة ويتشاجر
الحوذيون ، وتتكدس أكوام من رءوس الكرنب
والتفاح المتعفن على أعتاب قصور شخصيات عظيمة
من طبقة الكونتس بيركشاير وأسقف ديرهام ، وأما
ما أصبح الآن صميم حى لنكولن اين فيلدز فكان
يومئذ رجة مفتوحة خلاء يجتمع فيها الطغام
والأوباش كل مساء على قيد خطوات معدودة من
قصر كارديجان وقصر ونشستر ، ويأخذ المهرجون
ولاعبوا السيرك والبهلوانات فى العجيج والضجيج
وترقص الدبية وتقام مصارعات بين كلاب الصيد
المدربة والثيران لامتاع حثالة السوق ، أما النفايات

فكانت تلقى مبعثرة أو مكومة فى سائر أنحاء تلك
المنطقة ، والمروضون يدربون الخيول هناك ،
والمتسولون كانت مضايقاتهم وصفاقتهم وصخبهم
على أسوأ مستوى عرفته أحط المدن وأكثرها
فوضوية فى القارة الأوروبية فالصفاقة هناك
كانت مضرب الأمثال ، وطائفة المتسولين المقيمة
فى ذلك الحى كانت تعرف عن ظهر قلب شارات
جميع الوجهاء والأقطاب المطبوعين على الاحسان
فى ذلك الجوار ، فما تظهر مركبة لورد مطهمة
تجرها ستة جياد حتى ينبرى جيش عرمرم من
الحاجلين والزاحفين والكتع والعميان والمشوهين
من كل نوع وجنس لاضطهاد مقامه الرفيع .

وقد ظلت هذه الفوضى سائدة على الرغم من
الحوادث الكثيرة المكدرية وعلى الرغم من بعض
الاجراءات القانونية الى أن حدث فى عهد الملك
جورج الثانى أن سقط السير جوزيف جيكل وزير
المحفوظات الملكية صريعات تحت أقدام أولئك الجبابرة
وسط الميدان ، وعلى أثر ذلك نشطت السلطات
المسؤولة فأقامت سورا حديديا حول تلك الرحبة
الواسعة وغرست فيها حديقة غناء .

وأما ميدان القديس جيمس فكان مستودعا تلقى
فيه سائر أنواع النفايات والرماد المحترق وجثث
القطط والكلاب النافقة فى وستمسر ، وأنشأ
بعضهم هناك حلقة لمباريات التحطيب ، ثم أقدم
صفيق ممن وضعوا أيديهم هناك على الأرض
الفضاء بالتقادم على اقامة عريشة للنفايات والقمامة
تحت نوافذ وشرفات الصالونات المذهبة حيث تقام
المآدب والحفلات الراقصة فى قصور أكبر أقطاب
المملكة من دوقات نورفولك وأورموندز وكينت
وبنبروك ، وظلت هذه الوقاحة قائمة جيلا كاملا
كثرت فيه الكتابة والشكاية قبل أن يتقدم السكان

الى البرلمان بالسماح لهم باقامة الأسوار الحديدية حول الميدان وزرع الأشجار فى موضع النفايات.

✽ ولئن كان هذا حال المناطق التى كان يقطنها الجانب المترف الثرى الوجيه من المجتمع ، فمن السهل أن تتخيل ماكان يعانيه السواد الأعظم من سكان لندن ، فتبليط الشوارع كان حقيرا الى درجة ان جميع زوار لندن الأجانب كانوا يستكرونها وينددون بها فى استفظاع ، وعمليات الصرف كانت من السوء بحيث ينقلب جانباً أى شارع فى أوقات الأمطار الى نهيرات جارفة التيار ، وقد خلد شعراء كثيرون مناظر تلك النهيرات التى كانت تجرف الى شارع فليت والمصرف الكبير المقام هناك كميات هائلة من القاذورات الحيوانية والنباتية من أمام حوانيت القصايين وبائعى الخضروات ، وكان ذاك الفيضان يطفى فى الشوارع التى يمر بها على الطوارىن يمينا ويسارا ويبعثر أوساخه الى مسافات بعيدة مرور المركبات والعربات ، ولذا كان هم السائرين على أقدامهم موجهها فى المقام الأول الى البعد قدر الامكان عن طريق المركبات ، وكان الدمشون من أهل الحياء يتنازلون عن مواضعهم لصق الجدران ليظفر بها أهل الجرأة والقوة البدنية ، فاذا تقابل عرييدان أخذ كل منهما يدفع الآخر بعيدا عن الحائط الى أن يجد أضعفهما نفسه ملقى فى تيار الماء .

✽ ولم تكن البيوت مرقومة كما هو حالها الآن . فلم تكن ثمة فائدة ذات بال فى ترقيمها حينذاك لأن الحوذيين وحملة الكراسى والسعاة فى لندن لم يكن بينهم الا عدد ضئيل جدا يستطيع قراءة الأرقام والكلمات . فكان لابد من استخدام علامات يستطيع أجهل الجهال أن يميزها . ولذا

كانت المتاجر والحوانيت تتمايز فيما بينها بعلامات ولافتات مرسومة بالألوان ، مما كان يضى على الشوارع مظهرا غريبا بهيجا ، فالسائر يجد نفسه بين صفين لا نهاية لهما من رسوم البلوط الملكى والدببة الزرقاء والحللان الذهبية وما الى ذلك ، ولم تختف هذه المناظر الا بعد أن أصبحت غير ضرورية لارشاد السائرين من العامة .

✽ وحين يسدل المساء أستاره كان السائر فى شوارع لندن يتعرض لخطر جدى ماحق ، وأقل أفانين هذا الخطر ان نوافذ المطبقات العليا كانت تفتح لتتهمر منها دلاء ملأه بكل كرية قذر من السوائل والجوامد ، بغير نظر الى السائرين تحتها ، وكان من غير النادر أن يصاب الناس بالكدمات أو يسقطون منزلقين على الأرض فيصابوا برضوض فى عظامهم أو كسور ، فالى آخر سنة فى حكم الملك شارل الثانى كانت شوارع لندن تتخبط فى ظلام دامس طول الليل . فلا عجب أن يمارس فيها اللصوص وقطاع الطرق حرقهم آمين من العقاب ولكن هؤلاء اللصوص والنهائين لم يكونوا أهول الخطوب الليلية حينذاك ، بل كان أشد منهم مراسا وأدهى مكروها ولع المنحليين من الشبان المترفين بالتسكع فى شوارع المدينة ليلا يحطمون زجاج النوافذ ويزعجون الآمين فى بيوتهم ويقلبون المركبات والكراسى المحمولة ويضربون الوادعين من الرجال ويعتدون بفظاظة وبمداعبات عنيفة على الحسان من النساء .

✽ وفى ذلك العهد كان البرلمان متوقفا عن الانعقاد منذ سنين ، وكان المجلس البلدى أو مجلس المدينة لا يمثل أحاسيس المواطنين وآراءهم ، ولم يكن فى لندن شئ قريب الشبه بالصحافة الحديثة

فكانت المقاهى الوسيلة الأساسية للوقوف على تيارات الرأى العام، وقد أبدع ماكولى فى وصف بيوت القهوة وجوها فى تلك الفترة .

كان كل رجل من الطبقة المتوسطة العليا يذهب كل يوم الى مقهاه ليطلع على أحدث الأنباء ويناقشها وكان لكل مقهى خطيب أو أكثر يصغى الجمع هناك لبلاغته فى اعجاب فسرعان ما أضحت المقاهى تمثل ما تحتله الآن الصحافة وكتابها من المكانة ، أى أنها كانت السلطة الرابعة فى المملكة . وقد لاحظ الأجانب من زوار لندن أن المقهى فى ذلك الحين أبرز ما يميز لندن عن سائر المدن فى العالم ، فالمقهى يومئذ بيت المواطن اللندنى الحقيقى، ومن أراد أن يلتقى بسيد مذهب معروف لا يسأل عادة أين يقطن، بل أى مقهى يتردد عليها باستمرار ، ولم يكن أحد يرد عن دخول هذه المقاهى بشرط أن يدفع بنسأ عند الباب ، وكانت كل طبقة اجتماعية مرموقة وكل مهنة وكل نحلة دينية أو رأى سياسى لها مقر قياتها فى مقهى معين ، فثمة مقاه بالقرب من حديقة القديس جيمس يجتمع فيها أهل الأناقة والغندرة، وقد غطت رءوسهم وأكتافهم شعور مستعارة سوداء أو شهباء لاتقل غرارة عما يرتديه الآن وزير الخزانة أو زعيم الأغلبية فى مجلس انعموم .. وفى مقهى ويلز الشهير فيما بين كوفنت جاردن وشارع باو محراب مقدس يرتاده المهذبون من عشاق الأدب الرفيع ، حيث يدور الكلام وتلقى الخطب حول العدالة بمعناها الشاعرى وحول وحدة الزمان والمكان ، وهناك فريق لأنصار بيرولت وفريق آخر يناصر المحدثين وفريق ثالث يناصر بوالو الناقد الفرنسى وفريق رابع يتعصب للأقدمين ، وما أشد اختلاف هذه الطوائف فى مظهرها ومشاربها

رغم احتشادها تحت سقف واحد . فمن بينهم كبار اللوردات بشياهم الزاهية ، ورجال الكنيسة فى مسوحهم، وقتيان من طلاب الجامعات، و مترجمون وصناع فهارس فى سترات مهلهلة .. وكان أشد التراحم على الاقتراب من المقعد الذى يحتله الشاء جون دريدن . وفى الشتاء كان مكان هذا المقعد دائما بالقرب من المدفأة، وفى الصيف ينقل المقعد الى الشرفة ، وكانت أعظم حظوة ينالها الوجهاء من الرواد والفقراء على السواء أن يتمكن من الانحناء لجون دريدن والاستماع الى رأيه عن آخر تراجيديات راسين أو رسالة بوسى عن الشعر الملحمى وأما الحصول على نشقة من صندوق سعوطه فشرف يدير رأس أى شاب متحمس منهم مدى العمر .

وكانت ثمة مقاه يتوجه اليها الناس لاستشارة أقطاب الطب ، ومقاه مخصصة لليهود من المرايين والصرافين القادمين من البندقية وامستردام ، ومقاه مخصصة للكاثوليك .

* وأما الطرق العامة خارج لندن فكانت عرضة لأشد المعاطب تصيب المسافرين والبضائع على السواء فحالة تلك الطرق لاتتناسب اطلاقا مع بلد يقوم على تبادل التجارة ولا مع مستوى الثراء والرخاء الذى وصل اليه الانجليز يومئذ ، ففى أهم هذه الطرق وأشدها حيوية تكثر الأخاديد العميقة والمهاوى المفاجئة ، واذا ساد الضباب أو عتمة الغروب لا يستطيع المسافر أن يميز أرض الطريق وسط الحشائش الغزيرة المرتفعة التى تجور على الجانبين ، ولم تكن المركبات تستطيع المرور فى يسر الا فى الجو الصحو ، أما الجو الممطر فالوحوّل فيه عميقة بحيث تتحول مواضع كثيرة الى مستنقعات . وعندئذ تنشب معارك بين الحوذيين

بسبب ضيق الدرب الذى لا يسمح الا بمرور عربة واحدة، وكل حوذى يرفض التنحى للآخر ، فأدأب الطريق والمرور كانت مجهولة تماما ، وفى كل يوم كانت تغوص مركبات فى الوحول ويشتد طلب الثيران من المزارع القريبة لا تتسألها . وحينما تغزر الأمطار جدا تتحول الطرق الى بحيرات ، وعلى المسافرين أن يعبروها سباحة اذا فاجأتهم هذه الظروف أثناء السفر والا هلكوا . وما أكثر من غرقوا فى تلك الظروف .

❖ ولا عجب أن يصبح قطع الطريق مهنة رابحة شبه مأمونة وسط هذه الفوضى ، ولذا جنح بعض المثقفين من الشبان الى تكوين العصابات ، ومن أشهرهم كلود ديفال سكرتير دوق ريتشموند ، وكان وسيما جريئا شديد المجاملة للنساء ، وسرعان ما استفاضت شهرته وأصبح معبود الحسان ، فلما قبض عليه بعد سنين انهالت شفاعاتهن بالمئات على الملك كى يعفو عنه اكراما لشبابه وجماله .